توماس سيبوك

النسيج السيميائي(*)

ترجمة
عبد الحق بلعابد

ملاحظات تمهيدية لـ جون جاك توماس

علاوة على الميزة الوثائقية الأكيدة التي يتسم بها مقال سيبوك و التي تعد مهمة بالدرجة الأولى، فإنه يتمسك دون شك بوضعية تتناسب مع أسس السيميائية العامة و الصعوبات النظرية التي تنتج عنها .

و يعتبر سيبوك في الجزء المخصص للركائز الثلاثية للسيميائية،بأن اتصال العلوم الثلاثة بعضها ببعض ـ اللسانيات، الفلسفة، الطب ـ يرتكز على السيميائية مثلما هي معروفة في الوقت الحاضر. فهل باستطاعتنا القول أنالأمر هنا يتعلق بادراك "أمريكي"؟

هل يمكننا أن نكشف عن "إقطاعيات"محلية"في مفهوم السيميائية؟،وهذا ليس بالأمر المستحيل، و قد قدم فيه سيبوك أدلة جد واضحة في ملاحظته التمهيدية إذ يقول في "تصحيح المصطلحات": "يجب على السيميائية أن تكون حتما واحدة من ميادين المعرفة النادرة و التي من خلالها لن ينجح المختصون فيها في إدراك توافق يتعلق بتعريف نظامهم".

إن موضوع الأسس الإبستيمولوجية يستحق أن يطرح و يناقش، في الوقت نفسه الذي ظن فيه أن السيميائية فيها شيء من الامبريالية و التشذير.

و قد صرح من قبل أ.إيكو وهو ينهي خطابه خلال المؤتمر الأول للجمعية الدولية للأبحاث السيميائية الذي جرى في جوان من عام 1974 ، إن بعض الباحثين تجرؤوا على وضع السيميائية " في هيئة دراكولا : إنه مصاص دماء و غول لا يمكنه العيش إلا بامتصاص دماء المخلوقات الحية الأخرى" (1).

كما أصر في نفس المداخلة على ضرورة التمييز بين الأعمال السيميائية وباقي الأعمال الأخرى.و بمعنى آخر، مادام قد طرح هذا الشك الغامض حول المجال و المشروع السيميائيين، فإن صفة "السيميائية" لن تكون مجرد ملصق موجه لتقبل أي دراسة يعمد فيها إلى استخدام مفهوم العلامة.

و بعد مرور عامين على تجديد مقال " تصحيح المصطلحات"، ردد سيبوك الإصرار نفسه على مقتضى ما سبق،بالإشارة ضمنيا إلى أن الوضع لم يتحسن ولو قليلا. فبرأينا أن هناك دوافع قوية تعرقل حل هذه المسألة، مادام لم يتجسد نوع من التوافق بالنسبة للأنظمة المؤسسة.

وإذا سلمنا بفكرة "الركائز الثلاثية" كما اقترحها سيبوك ، فإنه علينا أن نقر بعدم وجود الطب الذي حل محله المنطق، و هذا من خلال أعمال مدرسة تارتو «Tartu»، فإن المنطق بالنسبة لسيبوك مماثل للفلسفة بلا قيد ولا شرط، كما يقتضي أن يكون كذلك بالنسبة لبيرس Peirce. و قد كتب لكومساف LekomcevY.K. في مقاله " بعض أسس السيميائية العامة في الأعمال حول نسق العلامات ": " اعتبرت السيميائية من الناحية التاريخية بمثابة عمل أنجزه باحثون يمثلون نطاقا ضيقا بالنسبة للأنظمة العلمية: الفلسفة، المنطق، و اللسانيات"(2). بالإضافة إلى التقليد الفلسفي الذي تتطلب فيه الدراسة بحثا طويلا، و الذي لم يذكر جليا في هذا التمهيد المختصر، فإن التقليد اللساني في حد ذاته يعد مادة للجدل. و بصدد هذا الأخير، نود المجازفة ببعض الملاحظات.

لقد أثبت النسيج السيميائيمنذ البداية على وجود اختلاف بين السيميائية والسيميولوجيا، في حين أنهما مصطلحان غالبا ما يمزج بينهما في التقليد الفرنسي(3) . كما أبدى سيبوك نيته في تعويضهما بالأعمال التي أدرجت في سياق المحاضرات المسندة إلى دي سوسور ("بطريقة تحريفية...تاريخية")،و إذا ما لاحظنا، وجدنا أن رأي يالمسلاف/ Hjelmslev لم يؤخذ بعين الاعتبار، غير أنه وضع في نفس المستوى الذي هو عليه موريس/ Morris ـ كما قدره سيبوكبكل صراحة ـ من مدرسة تارتو "Tartu": " لقد تمكن يالمسلاف من وضع خط فاصل جوهري بين نظام العلامات و ذلك الذي يتعلق بالصور- فدي سوسور يرى بأن الجوانب المكونة للعلامة ليست في حد ذاتها علامات. و الشيء الأساسي بالنسبة للسيميائية الوصفية هو أنه في سيميائية يالمسلاف نجد أن العلاقة المتبادلة بين وجهي العلامة عموما ليست علاقة ازدواجية مشتركة. و في هذا السياق نجده يقدم المفاهيم المتغيرة و الثابتة بالنسبة للعلامات.

والذي ركزنا عليه واعتبرناه أكثر أهمية هو التصور التوفيقي (أو التحييد)"(4) و بالتأكيد، يعتبر سيبوك أن العلاقة الثلاثية ـ ممثل، موضوع،مؤول ـ هي أكثر نتاجا من مفهوم العلامة SA/SE (الدال و المدلول) إذا ما نظرنا إليها من الناحية السيميائية كما نجدها في المحاضرات. و إذا أخذنا بعين الاعتبار تطور التداولية و أهمية المكونات الغامضة، لن يبدو الأمر خطأ لأنه تنقص إشكالية "الموضوع" (و هذا بالمعنى الذي استنتجه بيرس) بشكل قطعي في تعريف دي سوسور.

يمكننا على الأقل اعتبار أن كلا من التصورين غير متعارضين بشكل كامل إذا ما افترضنا أننا نقحم دي سوسور في قضية لا تعنيه.

ولقد أنكر مييه/ Meillet عند خروجه من المحاضرات هذه الأخيرة مشيرا إلى أن الأمر غير صحيح: "هو كتاب لم يكتبه الأستاذ و لن يعمد لكتابته".فمنذ الستينيات و تحديدا عام1965، حين سادت المنهجية "البنيوية" التي تستحق أن يناقش الجزء الأكبر من قيمتها النظرية و المنهجية في المحاضرات، بدأنا نفهم أنه يجدر بنا التمييز بين "دي سوسور-الرجل" و "دي سوسور - الصورة " كما أشار إليه كلافي/Calvet(5).و نتيجة لمجموعة من الملاحظات التي استنتجها طالبين خلال المحاضرات، و التي اعتبرت ناقصة، تبين أن المحاضرات متعلقة تماما بـ"دي سوسور - الصورة ".فيبدو الأمر و كأن الناشرين أرادوا تكوين " صورة مثيرة " و مصغرة تمكن من إنشاء لسانيات عامة منفردة ومستقلة. و إذا كانت خاتمة المحاضرات غالبا ما تذكر، فإنها المثال الأكثر إبرازا لذلك. إن قراءة "مصادر المحاضرات المخطوطة" لغودل/(Godel) تجعلنا نقتنع بالدقة التي عمد إليها الناشرون للتمويه بافتراضات و أبحاث دي سوسور المصطلحية،وذلك بإعطائها وجها مستخلصا، أو بعكس ذلك، غير دقيق، والتي لا تتسم به. في حين أن دي سوسور لم يتخذ بعد قرارا نهائيا يقبل فيه بمصطلح "سيميولوجيا" و يعود الفضل في قبول هذا المصطلح إلى المحاضرات و إلى الصنافة التي وضعها نافيي/Naville (التصنيف الجديد للعلوم، 1901).

و بفضل أعمال أنجلي/Engler(6) يمكننا التأكد من أن دي سوسور قد فضل فيما بعد مصطلح "العلامية"/ signologie(7) :" في بداية الأمر استخدمت مصطلح سيميولوجيا [...] إن كلمة علم العلامة من ناحية تكوينها ليست مزعجة أكثر من علم المصطلح، علم الاجتماع، علم المعادن، و كلمات لاتينية أخرى ألحقت بها كلمة (علم)"(8).

من المؤسف أن أوراق دي سوسور قد تم الاحتفاظ بها بعناية كبيرة (فلأي سبب يا ترى؟)، يمكننا أن نثبت دون شك بأنه إذا تم التأكيد على غلق العلامة و بشكل نهائي في المحاضرات، فيعني ذلك أنها اعتبرت نقيضا لأفكار الكاتب:" ففي آخر تحليل ندرك بأن الجانب الأصيل للسان ما، هو ذلك الذي يجعل منه يختلف عن باقي الألسن كالتي يملكها شعب معين ينحدر من أصل معين، و هذا الجانب الذي هو شبه إثنوغرافي يمكنه أن يعود علي بالمنفعة"(9).

كما حاول ياكبسون بدوره أن يظهر إمكانية إثبات علاقة بين بيرس ودي سوسور عن طريق العمل الذي قام به ويتني/Whitney.فدي سوسور كان على إطلاع بأعمال ويتني، لكننا لا نجد أي مرجع لويتني في مؤلفات بيرس التي تم نشرها-مع أن كلاهما أسهم في تأليف "معجم القرن" (Century dictionnary) (1889 - 1891).

وقد أعرب سيبوك في آخر مقال له "الرابطة الفرنسية السويسرية"(10)،عنالفرضية التي من خلالها عمدت كل من عائلة بيرس وعائلة دي سوسور منذ زمن بعيد إلى تطوير توافق علمي دعم خلال إقامة بيرس في جونيف سنوات (1875 - 1879، 1888)، إذن فمن المعقول جدا أن كلاهما كانا على معرفة بأعمالهما الخاصة.ومن هذا المنطلق أيضا يجب علينا نشر كل من مؤلفات بيرس ودي سوسور غير مطبوعة.

يمكننا أن لا نصدق ما يترجم في السير أو أن نحذر منه، و الحقيقة أنه في نهاية الأمر لم يبرز "دي سوسور-الرجل" بشكل واضح في الإشكالية المعاصرة للسيميائية، كما أنه يبدو كقاعدة هشة ننطلق من خلالها في مناقشة نظرية. إذ ينبغي لنا بالمقابل أن نبرز إلى أي مدى كان تعريف السيميولوجيا الموجود في المحاضرات مجزءا و محدودا بلا فائدة بمجرد أن نهتم بطرح أسئلة تتعدى ذلك الإطار الضيق لنظام اللسان. كذلك يقتضي الأمر أن نزيل سوء الفهم الذي دعمه أولئك الذين تعمقوا في ترجمة دي سوسور، وأولئك الذين اعتبروا المحاضرات أكبر نص مرجعي بالنسبة إليهم،وأيضا أولئك الذين أرادوا جعلنا نعتقد أن الجانب النظري و الاصطلاحي الذي انتزعوه، يحمل نزعة شمولية.

و في هذا الصدد، قد تنفع إعادة قراءة مقال بنفنيست "سيميائية اللسان"(11) ، الذي نشر عن غير قصد في مجلة سيميوتيكا/Sémiotica(12) ، إذ يفسر فيه الصيغة الناذرة لعلم الدلالة الواصف "Métasémantique" ، فكاتب هذا المقال وضع بنفس الطريقة ما سماه "بسيميولوجيا الجيل الثاني" ، نافيا بذلك السيميولوجيا الموجودة في المحاضرات والأعمال المستوحاة مباشرة من المنبع الأصلي لدراسة الألسن المنمطة سابقا و المحددة اعتباطيا:

"و ختاما، علينا أن نتجاوز المفهوم الذي أعطاه دي سوسور للعلامة، ولا نجعل منه المبدأ الوحيد الذي تخضع له بنية و وظيفة اللسان معا. و يمكن لهذا التجاوز أن يتم بطريقتين:

ـ أما الطريقة الأولى وهي التحليل الداخل لساني،بشق بعد جديد للتدليل، ذلك الذي أسميناه في الخطاب بعلم الدلالة، و الذي سيكون من الآن فصاعدا مغايرا لما هو مرتبط بالعلامة والذي سيصير بعدا سيميائيا.

ـ أما الطريقة الثانية فتتعلق بالتحليل العبر لساني للنصوص و المؤلفات،ويتم ذلك بالإعداد لعلم الدلالة الواصف الذي سيتكون على علم الدلالة التلفظي.و بهذا التجاوز نحقق ما سنسميه "بسيميولوجيا الجيل الثاني..."(13).

إن صيغة " التدليل المزدوج"(14) التي مدحها بنفنيست ، تسمح لنا بأن نعاود الأخذ بعين الاعتبار الموضوعي و الاجتماعي، إذ أخذ اللغة جانبا، و لم يعنى بمسألة " اللسان" المذكورة في المحاضرات. كما أنه لا يحدد اللسان لكي يصبح مجرد مكونات لفظية بسيطة للتواصل. فقد أصبحت اللسانيات محل دراسة للشروط التذاوتية التي تسمح بتحقيق تواصل لفظي. و نلاحظ أن بنفنيست عندما استعمل "مفهوم التلفظية"ـ التي لم تذكر أبدا (و لسبب ما) في المحاضرات ـ جاءت بالمعنى الكامل للفظ: "فعل استعمال اللسان"، وليس بالمعنى الضيق" تأثير الدعوى التلفظية داخل الملفوظ". لكن الفرضية الثانية التي لم تعنى إلا بالملفوظ و التلفظية هي شبه توزيعية.

من المؤكد أن بنفنيست في الجزء الأول من مقاله كان له حديث مطول يخص أعمالبيرس، و فيه أشار إلى خلافه لبعض الأمور. لكن معارضته هذه ليست متوقفة تماما على تعريف مفهوم العلامة ووظائفها أكثر مما هي متوقفة على إجراء التحليل.

فبنفنيست كان حذرا من بيرس، لأن هذا الأخير قصد من وراء تلك العلامة،العلامة اللسانية، و كان ذلك بعد بحث طويل شمل أنظمة أخرى، في حين أن بنفنيست يرى أن إشكالية العلامة موحدة انطلاقا من إشكالية العلامة في اللغة الشفهية. و هنا نجد استحسانا بعكس النقد الذي وجههسيبوك لبارت : " أصر على معارضتي الشخصية في كون أن بارت قد نفى كليا من الكون السيميائي وجود دعوى "العلامة" عند المخلوقات غير الموهوبة في الكلام. ويتعلق الأمر هنا بمذهب الأنثروبولوجيا المركزية الذي قلل بكثير من الميزة المشرقة لمؤلفه".

و ختاما لنظرة سريعة قمنا بها حول علاقة الأطراف المتنازعة التي أدخلت اللسانيات في جدل غير مقنع، لكنه في المقابل توصل إلى نتيجة حول السيميائيات نود بدورنا الإشارة إلى أن اعتبار اللسانيات و كأنها نظام كامل يشمل على مواضيع و مناهج خاصة فهذا أمر وهمي.وبدقة أكثر، فإن اللسانيات كثيرا ما كانت تغير عبر التاريخ في موضوع الدراسة ومنهج المقاربة، وعلى نحو آخر، ليس في مقدورنا إيجاد أسباب هذا التغيير في نظرية اللسانيات في حد ذاتها،ولكن في مستوى آخر.غير أن اللسانيات تخضع إلى وحدة معرفية ليست مكونة لها، و تجردها من كل تحكم. ففي حقبة زمنية محددة، سادت الإبستيمولوجيا على أغلب العلوم الإنسانية،مؤثرة في الوقت نفسه على اختيار المنهج، واختيار الموضوع.من أجل ذلك فإن أي انزلاق إبستيمولوجي في العلوم الإنسانية، يكون له حتما أثر في الحقل اللساني.

و من المعقول جدا في هذه الحالة، أن نخال أنفسنا أننا نستطيع تمثيل اللسانيات بالفلسفة، تماما مثلما مثل سيبوك المنطق بالفلسفة - و أيضا قام بذلك بيرس بشكل واضح - وأن نستعيد كليا برنامج بيرس - "وضع منهج للمناهج" - من أجل إعادة السيميائية إلى امبرياليتها التي لا مفر منها، كونها بطبيعة الحال لا تنفلت من التحقيق الجاري عليها.

و بالطبع، سيكون هناك دائما صدى لأي سؤال نظري يهتم بالإبستيمولوجيا(15) لكننا لا نستطيع أبدا أن نبتهج لما تقدمه لنا من خطوات منهجية جديدة، مهملين بذلك تحمل مسؤولية تحليل و فهم تلك الخطوات. كما أنه ليس بوسعنا أن نأمل في وجود" تصحيح المصطلحات" إلا إذا أقيم تبادل تفاعلي متواصل بين سعي التعريف الإبستيمولوجي والتطبيق السيميائي.و إلا، سيكون من المحتمل يوما ما أن نجد لفظة "Sémiàtrie" (سيمياء الأمراض العقلية) تتعارض مع لفظة "Sémanalyse" (سيمياء التحليل النفسي)، مثلما رأينا سابقا لفظة "Psychiatrie" (طب الأمراض العقلية و النفسية) تتعارض مع لفظة "Psychanalyse" (التحليل النفسي).

*هوامش الترجمة:

*- هذا البحث ترجمه من الإنجليزية إلى الفرنسية جون جاك توماس، وصدر ضمن كتاب:
Le champ sémiologique, perspectives internationales, sous la direction de André Helbo, ed.Complexe.SPRL , Bruxelles,1979 .

1- الصحيفة الكندية للأبحاث السيميائية ، الجزء II ، 2 ، صيف 1974 ، صفحة: 13 ، انظر أيضا مقالي "سيميائية الكلام"، المادة:10 ، صفحة 182 ـــ189 .

2- ترجم تحت عنوان" بعض أسس السيميائية العامة في الأعمال حول أنظمة العلامات"،يوري لوتمان/Y.M.Lotman ،وبوريس أوسبنسكي/ B.A.Ouspenski بروكسل،المطابع المركبة 1976 سلسلة Creusets الصفحتين 236 – 242.

3- ينظر مثلا سيميولوجيا أم سيميائية،ميشال أريفي/ Michel Arrivé،جريدة لوموند/Le Monde،7 جوان 1974 ص. 28، صدر مجددا في" الصحيفة الكندية للبحث السيميائي الجزءII 2 صيف 1974 الصفحتين 25-26.

– أنظر أيضا المراجع التي أعطاها سيبوك في مقاله 1. و نسجل أيضا أن بنفنيست نفسه في مقاله سيميولوجيا اللسان،قد أبرز في الخاتمة قيمة خاصة بالسيميائية،إذ يستعمل السيميولوجيا و السيميائية في مضمون النص دون تمييز.

4- ي.ك.لكومساف/ Y.K.Lecomcev مقال مذكور ص. 236 .

5- ج.ل.كالفي/J.L. Calvet "مع أو ضدّ دي سوسير نحو لسانيّات اجتماعيّة" باريس،دار نشر بايوت/ Payot، 1975، ص. 152.

6- ر.أنغلي/R.Engler "معجم المصطلحات السوسيرية Utrecht/Anvers،الطيف 1968 ص. 53.

7- انظر في مقالي،علم الدلالة الواصف بنفنيست و تداوليته، في مؤتمر بنفنيست الدولي في Bloomington، ومنشورات جامعة إينديانا، و مركز البحث في اللسان، ومجموعة الدراسات السيميائية، 1977.

8- Ouv. Cité, p .46.

9- ر. ياكوبسون، الرد العالمي لمبادئ ويتي في علم اللسان، في "ويتني و اللسان"، M.I.T،Cambridge. صحيفة، 1971، ص. 37.

10- توماس ا. سيبوك "الرابطة الفرنسية السويسرية"، "المعنى السيميائي"، الجزء الأول، 1 جانفي 1977، ص 27ـــ 32.

11 . نشر في "سيميوتيكا، 1"، 1969، 1، ص. 1ـــ 12، و 2، ص. 127ـــ135؛ و أعيد نشره في "مشاكل اللسانيات العامة"، باريس، Gallimard(1970)، ص. 43 ـــ 66.

12 . من اجل تحليل فعّال لهذا النص انظر Henri Meschonnic "في العروضII "، باريس، Gallimard 1973، ص. 173 ـــ 187.

13 . Ouv. Cité, p. 66.

14 . Ouv. Cité, p. 63 .

15 . انظر مثلا، تدخل Paolo Valesio في مؤتمر بينفينست الدولي، Ouv. Cité.